تزول من فرنسا وتستتب الاحكام فيها تحت سلطة ما يعرف بالاتحاد المقدس حتى ضرب الجور والاستبداد اطنابهما وصارت الاماكن التي كانت ملجأ للثوار سجناً للنفوس ورأى العقلاء ان هذه الفلسفة لا غرض لها الاَّ حفظ النظامات القديمة وتأييد العقائد الشائعة واذا طولبت بدليل لجأت الى ما تعدُّه من البديهيات والاوليات التي لا تحتاج الى دليل فرموها بسهام الانتقاد وزعزعوا اصولها وتجاوزوا الحد في ما نقضوه منها حتى ان إمامهم الفيلسوف جون ستورت مل شكَّ في كل شيء وانكر البديهيات وقال ان كل علم متولدٌ من الاختبار وفاتهُ ان الاوليات الهندسية مثلاً يدركها الانسان بالبداهة ويقول بها قبل الاختبار وقبل الامتحان

هذا كان حال العلم وحال الفلسفة حينما ظهر سبنسر واخذ ينظر في الموجودات . وسنبين كيفية نظره فيها في الفصل التالي

قلة المواليد واسبابها

كتب الدكتور بوشي الاميركي في مجلة العلم العام الاميركية مقالةً موجزة في اسباب قلة المواليد قال فيها ان معدل مواليد الاميركيين الوطنيين وخصوصاً المتخرجين من المدارس العالية آخذ في التناقص في بعض الولايات وانهُ توصل بعد البحث الطويل الى النتائج الآتية وهي

اولاً ان معدَّل الزواج بين الاميركيين الوطنيين اقل منهُ بين الدخلاء وذلك الى سن ٤٥

ثانياً ان نسبة النساء المتزوجات اللواتي لم يلدن هي اكثر في الوطنيات منها في الاجنبيات

ثالثاً ان معدل مواليد الوطنيات اقل من معدل مواليد الاجنبيات اي ان النساء الاجنبيات الاصل يلدن اكثر من النساء الوطنيات الاصل

رابعاً ان من سنة ١٨٨٥ الى ١٨٩٧ كانت نسبة المتزوجات الوطنيات اقل من نسبة المتزوجات الاجنبيات

وعليهِ فمعدَّل مواليد الاميركيين الوطنيين اقل من معدل مواليد الدخلاء وخصوصاً المهاجرين حديثاً

ويظهر من ذلك لاول وهلة ان اميركا تكاد تشبه فرنسا في ان عدد مواليدها آخذ في التناقص والفرق بينهما ان مواليد كل اهالي فرنسا آخذ في التناقص واما في اميركا فالنقص محصور في مواليد الاهالي الذين طال عهدهم فيها

ولقد اتصل الباحثون في موضوع المواليد الى معرفة بعض النواميس الجارية عليها واكثرها

مبنيٌّ على تأثير الفواعل الطبيعية مما لا يمكن ان يصدق على المواليد الاميركية الاَّ قليلاً . وقال البعض ان قلة المواليد تصير وراثية مع الزمن حتى ينقرض النسل لكن ذلك لا محل لهُ في الولايات الاميركية لان شعوبها لا تزال جديدة بالنسبة الى غيرها . واكبر سبب لقلة النسل هو السبب الاجتماعي الذي بيَّنهُ المسيو دومون احد علماء فرنسا وهو مبنيٌّ على ما يشبه ناموس التنازع . وبيان ذلك ان للشعوب المتمدنة ولاسيما في الحكومات الجمهورية ميلاً شديداً الى تحسين احوالها المعاشية وحفظ مقامها في الهيئة الاجتماعية فينتج من ذلك الميل او الجهاد مباراة بين الطبقات المختلفة تقضي بتقليل النسل لانهُ اذا قلَّ اولاد الانسان امكنهُ ان ينفق عليهم عن سعة اكثر مما لو كانوا كثاراً وعلى ذلك تكون عيشة المدن باعثاً على قلة النسل وتكون العيال في المدن اصغر منها في القرى والمزارع

وقبل البحث في ناموس دومون يجب مراعاة احوال الشخص واحوال المملكة التي هو فيها . فانهُ اذا سهل على المرء تحصيل معيشتهِ من غير تعب او بقليل من التعب لم يجد ما يعوقهُ عن الاكثار من الاولاد . والفقراء الذين لا يرون مناصاً من ورطة الفقر ولا مركز لهم يخشون على فقدانهِ يكثرون من النسل ايضاً . ويشاهد هذا خصوصاً في الممالك التي تكون فيها الامة مقسومة الى طبقات او في الممالك التي تكون حكومتها مطلقة كروسيا فان الفقراء فيها يتناسلون بكثرة لانهم لا يهتمون بامر مستقبلهم . ولكن متى برقت لهم لائحة الامل وتحسنت احوالهم ولو قليلاً كان ذلك اغراء لهم على متابعة الجهد في زيادة تحسينها فيجعلون يهتمون بتقليل نسلهم حتى لا يعوقهم عن ذلك . واذا كثر نسل الموسرين والفقراء نجمت عنهُ مباراة وتنازع للحياة فيقف هذا التنازع صدًّا في سبيل اكثار النسل اذ يحمد الانسان حينئذٍ الى تقليلهِ لحفظ مقامهِ فيبتدئ دور النقصان في معدل المواليد نتيجة المباراة والمزاحمة في معترك الحياة

ويرى ناموس المباراة على معظمهِ في القسم الشرقي من الولايات المتحدة حيث ازدحم السكان فقلَّ معدل الزواج بسبب المنافسة وتنازع الاثرة . ولما لحظ الفتيات العزبات ذلك وراين سوق الزواج قد كسدت واوصدت ابوابها في وجوههنَّ اندفعن الى مباراة الرجال في الاعمال ليعشنَّ بعرق الجبين ولكن الآخرة كانت شرًّا من الاولى فازدادت المزاحمة وزاد معدّل الزواج نقصاناً

قلنا ان الدكتور بوشي بحث عن قلة المواليد في اميركا . ولكن يظهر ان هذا الداء منتشر في كل البلدان التي يسكنها شعب الانجلوسكسون . فقد ورد في جريدة الدايلي مايل الانكليزية احصاءات عديدة تدل على نقصان المواليد في انكلترا ايضاً وفي جميع مستعمراتها تقريباً . قالت هذه الجريدة انهُ منذ ست عشرة سنة قام احد العلماء الانكليز ونادى بوجوب

وضع حد لسيل المواليد الانكليزية الذي كان يتدفق يومئذٍ بعزم ولكن اليوم قد انقلبت تلك الآية فضعف ذلك السيل الجارف حتى كاد ينضب وتهدد انكلترا وجميع مستعمراتها بما يشبه الدمار . وهذه العبرة هي التي حدت بالرئيس روزفلت الى القاء الخطب العمومية في هذا الموضوع على الرجال والنساء في اميركا وهي التي دعت المستر كوعلان الاوستراليّ ليضم صوتهُ الى صوت روزفلت وينادي من على المنابر بصوت جهوري محذرًا الذين داسوا الشريعة القائلة انموا واكثروا . وقد شعرت انكلترا خصوصاً بعد حرب الترنسفال بانها يجب ان تصب سيول مواليدها على تربة افريقية لحفظ الشوكة البريطانية والاَّ جثت الراية الانكليزية لغيرها من الرايات الاجنبيات

ان معدل المواليد في انكلترا قلَّ عند بزوغ فجر القرن التاسع عشر حينما كانت المدافع الانكليزية تقابل المدافع الفرنسوية في وجه بونابرت وقوَّاده . وبعد ان انكشفت غمائم تلك المدافع وانتشرت راية السلم فوق سهول اوربا بدأ دور الزيادة فزاد معدل المواليد الانكليزية وظلَّ في ازدياد حتى بلغ معظمهُ في السنين التي تلت الحرب الالمانية الفرنسوية المعروفة بحرب السبعين فبلغ في سنة ١٨٧٦ نحو ٤ ,٣٦ في الالف وهو اعظم معدل ذكر في تاريخ مواليد انكلترا منذ عرفت فيها الاحصاءات المدققة وبعد تلك السنة ابتدأ الهبوط تدريجاً في انكلترا وفي اكثر مستعمراتها ايضاً

ولا ريب في ان الحروب من اعظم البواعث على تقليل السكان ولكن تأثيرها في معدل الزواج يكاد لا يشعر به . ففي سنة ١٩٠١ مثلاً لما كانت تربة افريقية الجنوبية تتلج بالقنابل لتزرع بجماجم البوير وتسقى بدماء الانكليز لم يشعر الانكليز بوطأة الحرب في تقليل معدل الزواج بينهم فقد كان معدلهُ ٩ ,١٥ في الالف ولم يكن في السنوات الاربع التي سبقت هذا يزيد على ١٦ في الالف . وقبل سنة ١٨٩٦ لم يتجاوز ٧ ,١٥ في الالف

ومما يجب ذكرهُ ان معدل المواليد في الشرق الاقصى كاليابان والصين في زيادة مستمرة على خلاف ما هو في اميركا وفرنسا وانكلترا فهل تستمرُّ هذه الزيادة سنين كثيرة وهل تكثر الشعوب الشرقية حتى تضيق عليها بلادها فتزاحم الشعوب الاوربية والاميركية على غير المعمور من الارض وعلى المعمور ايضاً . وهل تعلم الشعوب الاوربية ذلك فتدس الدسائس للشعوب الشرقية حتى يقع بعضها في بعض وتقطع رأسها بيدها وتبقى منزلتها من الشعوب الاوربية منزلة العبد من السيد والتابع من المتبوع — ذلك كلهُ مما يسهل تصوُّرهُ ولكن يعسر اقامة الدليل عليهِ